مميزات بني أُمية (١)

سيداتي ، آنساتي ، سادتي

فضل بني أمية على قريش

لو حاول باحث ان يتحدث اليكم في موضوع ميزات بني أُميـة حتى يصورهم صورة تامة في الجملة لاحتاج الى بضع محاضرات ، ولكن مالا يدرك كله لا يترك جله . قال النسابون واصحاب السير والتراجم : إن أُمية تصغير أمة ، والأُمة المملوكة ، والنسب اليه أُموى بضم الهمزة فأما من قال أموي بالفتح فقد أخطأ . وبنو أمية من أشرف قبائل قريش يلتقي نسبهم مع الرسول عليه الصلاة والسلام في جدهم عبد مناف . ومناف اسم صنم في الجاهلية مثل العزّى واللاّت ومناة وودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، وأُميـة الاكبر هو من ولد عبد شمس بن عبد مناف وولده حرب وابو حرب وسفيان وابو سفيان وعمرو وابو عمرو ، وهؤلاء يقال لهم العنابس أى الأُسود . ومن ولده العاص وابو العاص والعيص وابو العيص ، وهؤلاء يدعونهم الأعياص ؛ وأعياص قريش كرامهم ، يقال ما اكرم عيصه وهم آباؤه واعمامه وأخواله وأهل بيته .

وكان هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل أولاد عبد مناف بن قصيّ هم الذين يذهبون في التجارة الى البلاد المجـاورة . يحمل هاشم الإيلاف لرؤساء القبائل ؛ والإيلاف العهد وشبه الاجازة بالخفارة ، وهو عبارة عن شيء من الربح ، ويجعل لهم مع ذلك متاعًا مع متاعه ، ويسوق اليهم إبلاً مع إبله ، ليكفيهم مؤونة الأسفار ، ويكفي قريشًا مؤونة الأعداء ، فكان المقيم رابحًا والمسافر محفوظًا . والى هذا

(١) محاضرة القاها الاستاذ محمد كرد علي في مدرّج الجامعة السورية بدمشق يوم ٣ ذي القعدة ١٣٥٨ و ١٤ كانون الأول ١٩٣٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الإيلاف الاشارة في سورة قريش (لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) والمعنى انه تعالى منّ على قريش بما انعم عليهم من الايلاف الذي به كانوا يتتارون ويتجرون ولا يجوعون ، يرحلون رحلتين رحلة في الصيف وأخرى في الشتاء آمنين من اصحاب الفيل الذين جاءوا من الحبشة الى اليمن ليستولوا على البيت .

وكان هاشم يرحل الى الشام ويقصد الى غزّة ، وبه سميت غزة هاشم وبها مات ، كما مات حرب بن أمية أيضاً في الشام ، وكان المطلب يرحل الى اليمن ، ونوفل الى فارس ، وعبد شمس الى أكسيوم من ارض الحبشة . فبنو أمية هم الذين هيأوا اسباب التجارة لقريش وانقذوهم من الغصوب ، أي من اخذ مال غيرهم ظلماً وعدواناً . وادخلوا مكة في طور مدني بعد ان كان عيش أهلها معقوداً بظبات السيوف وأسنة الرماح ، وبهم عرفت قريش في ارض الروم والعجم والحبش ، وعرفوا هم العراق والشام واليمن والحبشة معرفة جيدة ، فبنو عبد مناف هم الذين كانوا اذاً يؤلفون الجوار ويجيرون قريشاً بجيرهم ، وكانوا لذلك يسمون المجيرين ، والعرب تسميهم اقداح النضار لطيب أجسامهم وكرم فعالهم .

مكانة أبي سفيان بن حرب

وكان ابو سفيان (صخر بن حرب) — والد معاوية ويزيد وزياد وعتبة وام حبيبة وجويرية — تاجراً عظيماً يجهز التجار بماله واموال قريش الى الشام وغيرها من ديار العجم ، وكان يخرج احياناً بنفسه ، وكانت اليه راية الرؤساء التي تسمى العقاب . واذا حميت الحرب اجتمعت قريش فوضعتها بيد الرئيس ، والعقاب العلم الضخم يعقد للولاة . وقاد ابو سفيان قريشاً كلها يوم أحد ولم يقدها قبل ذلك رجل واحد إلا يوم ذات نكيف ، قادها المطلب ، ويوم نكيف وقيل ذي نكيف وقعة كانت بين قريش وبني كنانة بناحية يلملم من نواحي مكة ، فهزمت قريش بني كنانة ، وكان صاحب امرها عبد المطلب او المطلب . وابو سفيان كان يوم أحد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويوم الاحزاب رأس من حاربوا الرسول . ولما كان عائداً في تجارة قريش من الشام أمسك المسلمون عليه الطريق فأبلى بلاء حسناً حتى انقذ اموال التجار ، وكانت تقدر بخمسين الف دينار . وكان اذا ورد بلاد الروم اكرمه الأمراء والأعيان لمكانته في قومه . وكان قبل الاسلام يملك في البلقاء جنوبيّ الشام ضيعة يقال لها نِقنِس . وكان في الجاهلية هو وعتبة وابو جهل أفضل الناس رأياً .

حارب ابو سفيان رسول الله يوم كان يصعب عليه ، اول الدعوة ، ان ينزل عن ارستقراطيته وامرته .

وقيل ان معاوية ويزيد اسلما قبل ابيهما ، وكتما عنه اسلامهما ، وكذلك ابنته ام حبيبة واسمها رملة زوجة الرسول اسلمت قبل ابيها . وكانت تحت عبيد الله ابن جحش ، هاجرت معه الى ارض الحبشة فتنصر زوجها ، وثبتت هي على الاسلام ، فبعث الرسول عمرو بن أُمية الضمري الى النجاشي ، فخطب عليه ام حبيبة فزوجها اياه ، واصدقها النجاشي من عنده عن رسول الله اربعمائة دينار . وزار ابو سفيان ابنته ام حبيبة لما قدم المدينة ليعلم الرسول ان يزيد في هدنة الحديبية ، ودخل على ابنته فأراد ان يجلس على فراش النبي فطوته دونه ، فقال : يا بُنية أرغبت بهذا الفراش عني أم بي عنه ؟ فقالت : بل هو فراش رسول الله وانت امرؤ نجس مشرك فقال : يا بنية لقد أصابك بعدي شر .

وكان قبل اسلامه هو واولاده من المؤلفة قلوبهم يعطيهم الرسول من الغنائم والأموال ما يتألف به قلوبهم . وأسلم قبيل فتح مكة فقال العباس : يا رسول الله انه (أي أبو سفيان) يحب الفخر فاجعل له شيئاً يكون في قومه فقال : من دخل دار ابي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ومن اغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن . فلما دخل في الاسلام دين المساواة ، حارب مع رسول الله يوم حُنين والطائف ، وحارب يوم اليرموك تحت راية ابنه يزيد ، كان يقاتل ويقول يا نصر الله اقترب ، يا نصر الله اقترب . وكان يقف على الكراديس يقص أي يقف أمام سرايا العسكر ويعظ ؛ والقاص الداعية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تميز نساء بني أمية

وتطور ابو سفيان لما أسلم ، واخلص في انتحال الدين الجديد ، كما كان مخلصاً من قبل في دينه القديم ، وابدى براعة حربية في الاسلام كان يبدي مثلها في الجاهلية . قال ابو سفيان للنساء اللاتي مع المسلمين يوم اليرموك — واليرموك النهر الذي كانت عنده الوقعة الفاصلة بين العرب والروم ، وبها فتح الشام كله جنوبه وشماله — وكان كثير من المهاجرات حضرن يومئذ مع أزواجهن وابنائهن وجلسن خلف صفوف المقاتلين : لا يرجع اليكن احد من المسلمين الا رميتنه بهذه الحجارة وقلتن له : من يزجوكم بعد الفرار عن الاسلام واهله ، وعن النساء وهن امام العدو . ولما حمي الوطيس واستقبل النساء مُسرْعان من انهزم من المسلمين أخذن يضربن وجوههن بعمد البيوت او عمد الفساطيط ويرمينهم بالحجارة ويقلن : أين أين عن الاسلام والأمهات والأزواج .

كان لنساء بني أمية وغيرهن مثل جُوَيرية ابنة ابي سفيان وكانت مع زوجها ، ومثل هند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان ومثل أم حكيم بنت الحرث بن هشام ، وهذه قتلت سبعة من الروم في مرج الصفر بعمود الفسطاط ، وكانت عروساً ، والخلوق على جسمها تنبعث رائحته — كان لهن من البلاء العظيم يوم اليرموك ما يذكر بالفخر على وجه الدهر : قاتلن بالسيوف حتى سابقن الرجال ، وكان النساء في الجيوش العربية يعملن في طهي طعام المحاربين ، وجلب الماء اليهم ، وغسل ثيابهم ، وتضميد جراحهم ، وتمريض مرضاهم ، وغير ذلك مما تعمله اليوم أعظم نساء الغرب لرجالهم في الحرب .

ويحدثنا المؤرخون انه ما فتحت بلدة في الشام الا وجد على أسوارها وفي ارباضها كثير من رجال بني أمية صرعى ، لكثرة ما عانوا من الجهاد في فتحها . وتدرب يزيد ومعاوية من أبناء أبي سفيان في السياسة والادارة ، وكان معاوية كاتب الوحي ، وكان عمر اذا نظر اليه قال : هذا كسرى العرب . وعقد ابو بكر في خلافته

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ليزيد بن ابي سفيان ، وكان يقال له يزيد الخير مع أمراء الجيوش الى الشام وقال : ان اجتمعتم في كيد فيزيد على الناس ، وان تفرقتم فمن كانت الواقعة مما يلي عسكره فهو على أصحابه ، وشيعه الصديق راجلاً وهو راكب وجعل يوصيه ، ولما مات يزيد في طاعون عمواس (سنة ١٨) ، وهو الطاعون الذي هلك به في الشام ألوف من الصحابة وغيرهم ، ضمّ عمر بن الخطاب لمعاوية ما كان من عمل أخيه يزيد ، وهو إمارة دمشق فصارت الشام لمعاوية . اما زياد ابنه الثالث فكان من أدهى العرب ، ومن أعظم رجال الادارة الذين انبغهم الاسلام ، عزله عمر بن الخطاب فقال زياد : أعن عجز عزلتني يا أمير المؤمنين ام عن خيانة ؟ فقال : لا عن ذلك ولا عن هذا ، ولكني كرهت ان احمل على العامة فضل عقلك .

منن بني أمية على العرب وتمدينهم

ولقد كان لأبي سفيان وأبيه حرب منة عظيمة على العرب في الجاهلية ، وذلك بنقلها الخط الى جزيرة العرب من الحيرة ، وما كان الخط معروفاً في الحجاز ، فأثبتا بهذا ان بيتهما النبيل مصدر حضارة أيضاً ، ولأحد رجال بني أمية منة أخرى في الاسلام تعد عظيمة جداً في بابها ، وهي ان امير المؤمنين عثمان بن عفان جمع القرآن ، فنسخه من الصحف وارسل المصاحف التي كتبت منه الى الكوفة والبصرة ودمشق ومكة والمدينة وابقى عنده مصحفاً سموه الإمام ، ولولا عمله المجيد لضاع بعض آيات الكتاب العزيز لاعتماد العرب على الحفظ أكثر من الكتابة ، وكان بعض الصحابة يحفظون ما لا يحفظه غيرهم ، فاذا اتفق ان مات أحدهم يخشى أن يضيع ما كان يحفظه .

وكان امير المؤمنين عثمان يكرم حرملة بن المنذر الطائي ، وكان شاعراً نصرانياً يعلم بسير ملوك العجم . وأتى أمير المؤمنين معاوية بأمد بن أبد الحضرمي وبعبيد بن شرية الجرهمي من اليمن يقصان عليه اخبار ملوك العرب والعجم ، وامر بتدوين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ما كانا يوردان عليه ، فكان أول من بدأ بتدوين التاريخ في الاسلام ، واستصفى معاوية كعب الأحبار لكثرة علمه ، وكان يعطف كثيراً على الشاعر سعيد بن عريض بن عادياء أخي السموءل بن عادياء من يهود الحجاز . وحفيد معاوية خالد بن يزيد ، وكان يدعى عالم قريش ، هو الذي زهد في الخلافة كما زهد فيها أخوه معاوية الصغير من قبل وصرف وقته في ترجمة كتب الفلاسفة والنجوم والكيمياء والطب والحرب والصناعات من اللغات القبطية والسريانية واليونانية ، وهو أول من أنشأ خزانة كتب في الاسلام ، والغالب انها كانت في دمشق . وامير المؤمنين عمر ابن عبد العزيز الأموي هو الذي دوّن الحديث وأمر بترجمة كتاب في الطب لينفع به الناس .

ولو لم يكن بنو أمية على جانب عظيم من النبوغ ومعرفة ثاقبة بحكم الناس ماوسد اليهم الرسول الولايات والأعمال العظيمة ، وقد انتقل الى جوار ربه واكثر عماله منهم ، وما كان فيهم أحد من بني هاشم ، وما استطاع الخليفتان الأولان ابو بكر وعمر ان ينقضا ما أبرمه الرسول من ذلك . والوظائف الكبرى توسد في الدول لمن يوثق بهم ، ويعرفون روح الدولة اكثر من غيرهم ، والادارة يبرع فيها المتمرنون عليها ، وبنو أمية كانوا أمراء في الجاهلية وكانوا كذلك في الإسلام ، تناقلوا فيهم حكم الناس كابراً عن كابر .

ميزات معاوية

تولى معاوية الشام أربعين سنة ، عشرين سنة أميراً وعشرين سنة خليفة . وجاء عمر بن الخطاب الى الشام مرة فتلقاه معاوية في موكب عظيم ، فسأله عن سبب هذه الأبهة التي اصطنعها فقال : إننا في بلد لا نمتنع فيها من جواسيس العدو فلا بد لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان فان أمرتني به أقمت عليه ، وان نهيتني عنه انتهيت ، فلم يأمره به ولم ينهه . أي أن معاوية اقتنع خليفة مثل عمر بن الخطاب الذي كان لا يرى الا الخشونة لنفسه ولعماله ، بتقليد الروم في ظاهرهم . وما حاد معاوية عن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأصول التي وضعها عمر بن الخطاب في الادارة ، بل أدخل فيها أموراً اقتضاها الزمان والمكان ، ففتح صدره لكل ما استحسنه مما كان عند الأمم المجاورة ، وكانت العرب لا تعرفه ، فأخرج الادارة بذلك من سذاجة البداوة الى بحبوحة الحضارة .

ما كان معاوية يصدر الا عن مشورة ولا يأتمن في ادارة الولايات والأعمال إلا الكفاة من أهل بيته غالباً ، ويستشير ارباب الرأي من انصار دولته ، وكان له منهم مجالس اشبه بمجالس النواب والشيوخ ، ومجالس في الولايات يدعونها مجالس الوفود . واستخدم النصارى في مصالح الدولة ، وكان عمر يمتنع من استخدامهم أو يسلموا ، فعهد الى سرجون بن منصور ثم الى ابنه منصور بن سرجون من نصارى الشام بادارة أمواله ، أي أن بني سرجون كانوا وزراء المال لمعاوية . وكان في جيشه الانباط والجراجمة والعجم وغيرهم من العناصر غير العربية وغير المسلمة ، فقام بتأسيس دولته بما تقوم به الدول ولا ينافي أصول الخلافة .

ومما يعرب عن سعة عقله وأنه عملي في جميع حالاته لا يبالي بالقشور والظواهر متى أوحى اليه العقل رأياً سديداً ما ذكره المؤرخون من أن عبد الله بن قيس غنم من صقلية أصناماً من ذهب مكللة بالجوهر فحملها معاوية من دمشق وأنفذها الى البصرة ومنها الى الهند لتباع فيها لأنه رأى بيعها قائمة اكثر لثمنها ، ولم يبال انتقاد المتزمتين من المسلمين .

توفر معاوية على تحسين آلة الحكم وادخل عليها ما ينفعها ويقويها ، وتسامح ولم يضيق على نفسه ولا على أمته في ادخال التجدد وعرض على جبلة بن الأيهم سيد بني غسان — لما هرب الى الروم لأن عمر أراد ان يقتله بمن قتله — أن يعطيه الغوطة كلها اقطاعاً على أن يعود من الروم ويرجع الى الاسلام ، يريد بذلك ان يتلافى ما وقع من عمر في ذلك ويقوي الاسلام به . وبجميل سياسته أخرج الخلافة من آل علي الى بني أمية وأخذها من الحسن بن علي بمال دفعه اليه ووعود وعده بها ، وكان بذلك عام الجماعة اي اجماع المسلمين على إمام واحد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وابتكر معاوية أموراً رأى فيها فائدة عامة منهـا انه أول من وضع الحشم للملوك ، ورفع الحراب بين ايديهم ، ووضع المقصورة التي يصلي فيها الخليفة منفرداً عن الناس ، والشرطة على رأسه اذا سجد ، وهو أول من اتخذ حرس الليل ، وأول من غزا في البحر وأنشأ الأسطول في صناعة صور وطرابلس ، وكان كثيراً ما يطلب من الخليفة الثاني ان يأذن له بصنع الأسطول فلا يرضى بالتوسع في ذلك ، وما سمح بركوب البحر الا للمتطوعة يبحرون برضاهم غير مكرهين ولما جاء الخليفة الثالث انطلق معاوية في بناء السفن كما أراد ، وكان معه في فتح رودس وقبرص ألف وسبعمائة سفينة ، هذا عدا السفن التي أحرقت في طرابلس بأيدي أناس من صنائع الروم ، وكان روم القسطنطينية في خوف من أسطوله في البحر ، كما يحسبون الف حساب لجيشه في البر .

بعض أعمال معاوية في اصلاح الدولة

ومن أهم ما قام به تنظيم الجيش ، وادخال الإصلاحات التي تزيد في قوته ، وتجعله ابداً تحت السلاح عند الطلب ، فضاعف لذلك عطاءه وارزاقه ، ووقت اوقاتاً لتناول الرواتب ، فهو اول من نظم الجيش بهذا النظام الغريب ، وجهزه بكل مايلزمه ، وجعل الجندي لايستند في معاشه على غير رزقه من بيت المال . وكان لكل جند من اجناد الشام جيش خاص به من أهل الاقليم الذي يتألف فيه ، والجند هو مانسميه بالفرنسية Le gouvernement militaire فمن جند دمشق ، الى جند الأردن ، الى جند فلسطين ، الى جند قنسرين . وأهم ما كانوا يهتمون له المرابطة على الحدود والثغور القريبة من ارض الروم . ولطالما ادهش معاوية الروم بصدقه كما ادهشهم بوفائه ودهائه . وقد ارتهن مرة رهائن منهم وضعهم في بعلبك ، فغدر به الروم بعد مدة ، فلم يستحل قتل من في يديه من رُهنهم واخلى سبيلهم وقال : وفاء بغدر خير من غدر بغدر .

ومعاوية اول من وضع البريد ، أحضر رجالاً من دهاقين الفرس فعرفهم مايريد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فوضعوا له البريد واتخذوا له بغالاً بإكاف كان عليها سفر البريد ، وكان لا يجهز عليه الا الخليفة او صاحب الخبر أي مدير الاستخبارات . وكان لصاحب الخبر في الاسلام شأن عظيم كما له عند الدول الحديثة . وهو الذي اخترع ديوان الخاتم وحزم الكتب ، ولم تكن تحزم ، وجعل على كل قبيلة من قبائل مصر رجلاً يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول : هل ولد الليلة فيكم مولود وهل نزل بكم نازل ؟ فيقال ولد لفلان غلام ولفلان جارية فيكتب أسماءهم ، ويقال نزل بهم رجل من اهل كذا بعياله فيسميه وعياله ، فاذا فرغ من هذا القبيل اتى الديوان حتى يثبت ذلك . وبهذا كان الخليفة يحصي السكان ولا يفوته خبر المتنقلين في ربوع بلاده .

كان لمعاوية انواع من السياسات برز فيها حتى عدّ من أعظم ساسة العرب . كان لا يولي الا السيد المسوّد في قومه ، ويستميل القلوب بالعطاء او بالاقناع او بالإغضاء ، فاذا لم تنجع هذه الوسائل وتوجس شراً ممن اغضى عنه وترضاه فلم يفلح عمد الى القسوة ، وكان يقول لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ولا اضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو ان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت . وكان يقول : إني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا . أي انه يطلق للناس حرياتهم فاذا لجأوا الى اظهار القوة اذاقهم بأسه الشديد . وكان يبذل الأموال العظيمة للعلويين والهاشميين فاذا لامه احد على هذا البذل اجابهم إن الحرب تستلزم نفقات اكثر من هذا العطاء . وكذلك كان ابنه وولي عهده يزيد : اعطى عبد الله بن جعفر اربعة آلاف الف فقيل له : أتعطي رجلاً واحداً هذا ؟ فقال : ويحكم إنما اعطيتها اهل المدينة اجمعين فما يده الا عارية .

واستخدم معاوية القصاص للدعاية السياسية يقعدون في المساجد والمعسكرات يدعون لدولته وينفرون من اعدائها ، وهذه الدعاية لم تكن زمان النبي ولا زمان صاحبيه ابي بكر وعمر ، وكان القاص اذا سلم الامام من صلاة الصبح جلس فذكر الله وحده

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومجده ، وصلى على نبيه ، ودعا للخليفة ولأهله ولأهل بيته وجنوده ، ودعا على اهل حربه . واستخدم ايضاً الشعراء للدعابة ، وزين لهم الدعوة الى التفاخر بالقبيلة والأيام المشهورة ، واخرج الشعر من الهجاء بعض الشيء ، وكان الشعراء في الدهر الغابر كأرباب الصحف في المدنية الحديثة يفعلون في عقول الناس بشعرهم ، خصوصاً اذا كان الشاعر فحلاً مفلقاً . اما الخطابة فكان جميع أهله خطباء ، وقد كان قوادهم ورجالهم كذلك خطباء أبيناء . وخطب زياد وعقبة والحجاج من ابلغ ما يؤثر عن خطباء العرب .

ابداع معاوية

كان معاوية يخرّج عماله في الادارة ويعلمهم إياها بالعمل ، ولا يعتمد الا على العظماء والدهاة امثال عمرو بن العاص والمغيرة . وكان من عادته اذا اراد ان يولي رجلاً من آله بني حرب ولاه الطائف ، فان رأى منه خيراً وما يعجبه ولاه مكة معها ، فان احسن الولاية وقام بما ولي قياماً حسناً جمع له معها المدينة ، فكان اذا ولي الطائف رجلاً قيل هو في ابي جاد ، فاذا ولاه مكة قيل هو في القرآن ، فاذا ولاه المدينة قيل هو قد حذق .

وله في سياسة العناصر ضروب من الابداع منها انه رأى النصارى كثرة غامرة في الشام فما احب اجلاءهم ؛ وما رأى من السياسة تركهم وشأنهم ، لئلا يستعين بهم الروم على الفاتحين ، فنقل الى الساحل قوماً من زَطّ البصرة والسيابجة وانزل بعضهم انطاكية ، ونقل قوماً من فرس بعلبك وحمص وانطاكية الى سواحل الأردن وصور ، ونقل من أساورة البصرة والكوفة (الأساورة قوم من العجم بالبصرة كالأحامرة بالكوفة) وفرس بعلبك وحمص وانطاكية جماعة . واسكن حصن سفيان الذي بناه على اميال من طرابلس ، جماعة كثيرة من اليهود ، وأسكن الشام كله جمهرة من القبائل العربية مزجهم بأهلها الأصليين ، فأصبح الساحل كالداخل في هذه الديار غاصاً بالعجم والعرب وبالسود والبيض وبالمسلمين والنصارى واليهود .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

رأى معاوية أن ارض الحجاز قاحلة ، يعيش اهلها في شظف من العيش ، على هذا كانوا منذ اقدم عصور التاريخ ، ولما جاء الاسلام وفتحت البلاد وكثرت الأموال فرض عمر بن الخطاب العطاء ، فأصبح الناس يعيشون من عطائهم ، وكان بعضهم يعيشون في الجاهلية من تجارتهم . وفي الاسلام دخل المتازون في اعمال الدولة ، ولكن هذا لم يدم طويلاً ، على ما تنبأ به حكيم بن حزام لعمر ، فتركت قريش التجارة واكتفت بالعطاء ، ثم بطل العطاء وبطلت التجارة ، لما تحولت دار الملك من المدينة الى دمشق .

خشي معاوية ان يهلك الناس في الحجاز اذا اعتمدوا على الموسم موسم الحج ، أو على صدقات المسلمين ، فعني في جملة ما عني به من أعماله باصلاح الزراعة في بلاد الحجاز ، فأحيا موات الأرضين ، واحتفر الآبار للسقيا ، واقام سدوداً لخزن المياه والأمطار ، فعاشت الحجاز من ارضها قرناً لم تشهد مثله من قبل ولا من بعد . وسارت أسرته على قدمه في هذا الباب فما ابطلت عمله بل تعهدته ونمته . وتسلسل الفكر ماثل في بني أمية يتم الآخر أبداً ما بدأ به الأول ، لا ينقضه ولا يغيره . واعظم ما فاز به معاوية ان رعيته من اهل الشام كانت تحبه محبة عظيمة ، وبهم ورِيَ زناده ووصل الى اهدافه وكتب له النصر على اعدائه .

ميزات بني أمية

ويطول بنا نفس القول اذا اردنا ان نعرض لكل خليفة من خلفاء الأمويين ، وما قام به من الأعمال العظام في السياسة والادارة ، واذا وازنا بين الرجال لانرى من عيارهم في الدول الخالفة كثيراً ممن يدانيهم ، واين مثل مروان ، وابنه عبد الملك وابنه عبد العزيز وسليمان بن عبد الملك ، والوليد بن عبد الملك ، وهشام بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز ؟ ولعمر بن عبد العزيز في أمور الدولة وسياستها وتنظيم ادارتها ابداع لم يعهد مثله الا لجده لأمه امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكانت له في باب التقوى والزهد اعمال تضاءل معها سيرة الزهاد المشهورين .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قال ابن الأثير : ولقد سمعت عن عمر بن العزيز كلمة اعجبتني جداً ، وهي انه قيل له في الذي يُخرجه ويطلقه من الأموال التي لا تسمح نفس ببعضها فقال لهم : أنا فتحت الدكان بعد العصر ، فاتركوني اعمل الخير فكم اعيش ؟ وكذلك كان .

ومما امتازت به دولة الأمويين انها كانت دولة عربية صرفة بدمها وأخلاقها وعاداتها ومراميها ومظاهرها ، وكان ابناؤها كلهم يحرصون على التزوج من العربيات من بنات الأشراف ، ولم يكن في جميع خلفائهم من أمه أم ولد غير مروان بن محمد آخر خلفائهم في الشرق ، كانت أمه كردية ، على حين كان العباسيون كلهم ابناء إماء الا اولهم السفاح ، ولذلك جعلوه اول خلفائهم وقدموه على المنصور وهو اكبر منه سناً وعلماً وسابقة . افسد العباسيون دمهم العربي بالاقتران بالاماء ، وافسدوا عصبيتهم بما كان من زهدهم في عنصرهم واعتمادهم على ابناء خراسان وعلى الموالي والعبيد فسقطت الأصول وقامت الفروع بدلها ، وأصبح بنو العباس على طول الأيام خلاسيين وهجناء لا بالعرب ولا بالعجم . اما بنو أمية فما عهد فيهم هذا ، كان دمهم صافياً واخلاقهم متشاكلة ، ويقوم نساؤهم ورجالهم عند الحد الذي رسمته لهم الفطرة ، وقضت به احكام الشريعة .

ما سمع في دولة بني أمية ان يتدخل النساء في شؤون الدولة وقد رأينا الحرَم في الدولة العباسية منذ عهد المنصور يتدخلن فيما لا يعنيهن من شؤون الرجال ، ولذلك اوصى المنصور ابنه الا يجعل للنساء سبيلاً الى الدخول في مهمات دولته . وكان من اثر تغيير الدم العباسي واتخاذ أمهات أولادهم من الفارسيات والروميات والكرجيات وغيرهن ان كثرت المؤامرات في قصور الخلفاء ، واصبح قتلهم من الأمور المعتاد وقوعها ، وكانوا — اذا استثنينا منهم المنصور والرشيد والمأمون والمعتصم واثنين او ثلاثة من المتأخرين من خلفائهم — الى ذل ليس بعده ذل ، واكثرهم أشبه بمشايخ طرق في زواياهم منهم بخلفاء يأمرون في قصورهم فلا يعصوْن ، ويشهرون الحرب ويعقدون الصلح ، واحكامهم نافذة في القاصية والدانية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ربما يُعترض على هذا بأن الوليد بن يزيد من الأمويين قد قُتل أيضاً ، والغالب ان قتله كان بسبب تخليه عن اليمانية لا لفسقه ولا للهوه كما اتهموه ، وهذه التهمة اذاعوها ليبرروا أمام الأمة مقتله ، اما سائر خلفائهم فكانوا في الغاية من السياسة والشجاعة والحزم والتقوى والعمل ليل نهار على مصالح دولتهم ومصالح الناس . وكان آخرهم مروان بن محمد على غاية العقل وحسن التدبير ، ولما نفذ القضاء سقطت الدولة بيده ، حتى ان الخليفة الذي جار عليه التاريخ — وتاريخ بني أمية كتبه اعداء دولتهم بعدهم ، كما شاءت الأهواء السياسية — ونعني به امير المؤمنين يزيد بن معاوية لم يكن باجماع ثقات المؤرخين بالدرجة التي صوره بها اعداء دولتهم ، ولا هو الذي قتل الحسين ولا امر بقتله ، ولما جاءه خبر مقتله اضطرب ولعن قاتله ، فاتخذ أعداؤه من هذه الفاجعة المؤلمة حجة على الحط من يزيد وآل يزيد .

عمران الأمويين وتأثيراتهم الدينية والمدنية

ومما امتازت به دولة بني أمية غرام رجالها بالعمران ، فقد اقام خلفاؤهم في المشرق أمثال الوليد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك من الجوامع والمستشفيات والخانات ودور الضيافات والقصور والطرق والجسور والسدود وتعمير الأمصار وتحضير البوادي والقفار ما هو عجيبة تلك العصور ، وما زال الجامع الأموي بدمشق وقصر الحير الذي اكتشف في البادية وجيء بنموذج منه الى متحف دمشق شاهدين على تلك العناية الفائقة وتلك المدنية الباهرة . قال احد دهاقين خراسان لعاملها من بني أمية (والدهقان رئيس الاقليم) إنكم بنيتم الايوانات في المفاوز ، فيجيء الجائي من المشرق والآخر من المغرب فلا يجدان عيباً الا ان يقولا : سبحان الله ما أحسن ما بُني .

أما ما نامت به دولتهم في الغرب من الأعمال العظيمة على يد مؤسسها عبدالرحمن الداخل وآل بيته فأعاد به مجد آبائه بعد ان قضى العباسيون في الشرق على كل أموي وأموية فالكلام عليه يطول . ولا نغالي اذا قلنا ان ثلث ماتم للعرب من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حضارة تام في الأندلس بفضل بني أمية ، والثلثان الآخران تاما في بغداد ودمشق والعواصم الأخرى كمصر ونيسابور وشيراز والري وأصفهان وغزنة .

وبما عرف به الأمويون من مرونة سياسية وادارة حكيمة رشيدة انتشر الاسلام وانتشرت اللغة العربية في القاصية من دون ما دعاية ولا تبشير مبشرين ، وامتد ملكهم الواسع في بلاد تبلغ مساحتها نحو ثلاثة ارباع مساحة اوربا ، وقدرها بعضهم بثلاثة آلاف وسبعمائة فرسخ وذلك من سواحل الاطلنطي الى تخوم الصين ، ومن جبال القوقاز وما وراءها الى خط الاستواء وما وراءه . وفي عهدهم دخلت في الاسلام أمم كثيرة من السلالة السامية (العرب والسريان والكلدان) ومن السلالة الحامية (المصريون والنوبيون والبربر والسودان) ومن السلالة الآرية (الفرس واليونان والاسبان والأهاند) والاهاند او الهنادك رجال الهند ، ومن السلالة التورانية (الترك والتتار) وكانت تقام شعائر الاسلام ويقرأ القرآن في قرطبة وفاس كما تقام الصلوات في السند وسمرقند ، وتتلاقى العناصر المختلفة في الموسم بمكة ، وفيهم الاسود والأحمر والأصفر والابيض تجمعهم جامعة الاسلام والطاعة لبني أمية . واصبحت دمشق هذه في نظر المسلمين كرومية في نظر اهل النصرانية ، وما كانت قبل عهد الأمويين تعد شيئاً بين العواصم والحواضر ، ودك العباسيون معالم عمرانها عندما فتحوها مخافة ان ينسب للأمويين شيء من الحسنات تذكر الناس بخصومهم أمس ، وقضوا على كل اثر لهم على نحو ما فعل التتار بالعباسيين في القرن السابع لما استولوا على بغداد عاصمة ملكهم وقضوا على الخلافة العباسية

(يتبع)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net